على الطريق التي تربط بين عدن والمخا ..

شواطئ طبيعية .. وآثار تعود لـ ٧٠٠٠ سنة

□ عند التفكير في زيارة منطقة لها ثقلها السياحي، تبرز العراقيل وتكبر التصورات الأولى وتجعل من الممكن مستحيلاً، لكن مع كسر اللحظة الأولى للمخاوف تصير الأمور المستحيلة ممكنة والممكن أكثر يسراً، خاصة إذا تكرر الوصف لهذه المنطقة أو تلك وذكرت المحسنات الطبيعية والمميزات التي تجمعها بين دفتيها.

ولا أخفيكم القول إنني عندما طلب مني، قبل سنتين، عمل استطلاع صحفي عن محافظة لحج، كنت حينها كالتائه في وسط الزحمة، وجدتني في منطقة جديدة لا أعرف من أمرها شيئاً، وكانت تصوراتي حينها أن شيئاً ما يميز هذه المحافظة، وكتبت حينها استطلاعاً «بانوراما» يجمع المحافظة بكافة مديرياتها في ثلاثمائة كلمة، وقبل الدخول في تفاصيل المحافظة، التي جمعت بين البحر والجبل، الخضرة والصحراء، تكشّف لي أن لحج - الحوطة تحديداً - ليست إلاّ وردة في حديقة كبيرة تجمع كافة أشكال الورود متعددة الألوان، وعند تفكيك مديريات هذه المحافظة، كلٌ على حدة، والدخول في نافورة الضوء الأولى، تبدّت الجبال بلون الصيف، والبحر بإصرار الزرقة، والخضرة بعمق الحسيني، والصحراء بزمهرير الظهيرة، وكل ذلك أخذ نصيبه من التناول في المديريات أكملها.

لحج/استطلاع/عبدالناصر الهلالي

رأس العارة

□ بقي لنا بقعة الرياح، ومرفأ الاصطياد في متاهة السفر البعيد القريب، رحلة الإصرار إلى أجمل بقعة بحرية في محافظة لحج، إنها رأس العارة، الجزء الأجمل من مديرية المضاربة .. هذه المديرية تتكون من عشرين مركزاً وتعد أكبر مديرية في المحافظة، نتيجة للتباعد الجغرافي، يحدها من الشرق محافظة عدن، ومديرية طور الباحة، ومن الشمال الزريقة ومديرية القبيطة والموازعية والأصيون، ومن الغرب باب المندب، ومن الجنوب البحر العربي.

قبل الذهاب إلى هناك كان القلق ينتابني، نتيجة الانتظار في فرزة السيارات .. وقبل اختيار ذلك أخبرني أحد الزملاء أن بإمكاني الذهاب مع القاضي حنش، رئيس المحكمة في رأس العارة، وأنه سيرتب ذلك معه .. قطع موعداً معه .. أبدى القاضي استعداده الكامل في ذلك تقديراً لصحيفة «الثورة».

الساعة الثانية عشرة والنصف بعد تناول الغداء بدأت الرحلة من عدن – المنصورة تحديداً – قال لي القاضي : بإمكاننا اصطحاب الشيخ عمر معنا إلى هناك، باعتباره أكثر معرفة برأس العارة .. الشيخ عمر من البريقة، بمجرد طرق بابه لبى ذلك بقوة .. كانت البريقة – المدينة المفتوحة التي تبدأ بالرمل وتنتهي بالماء – هي بداية الانطلاقة إلى هناك .. الشمس تتعامد في كبد السماء .. حرارة البداية للصيف قوية .. العرق يتصبب إذا ما توقفت السيارة، لكن ذلك لم يكن يعني لي شيئاً.

حسن الوصف حينها جعلني أستحث السائق بالإسراع، وحبذا لو أن الرحلة كانت حينها بالطائرة لكان أفضل، لكنني عدلت عن ذلك التفكير بمجرد وصولنا صلاح الدين وجبل فقم، حيث العمل جارٍ هناك لإنشاء قرية سياحية على الساحل .. ساحة كبيرة يحتضنها البحر.

طريق إسفلتية

□ قال القاضي : إن طريقنا على طول البحر .. كنت سعيداً والزرقة تلفنا من الشمال وشجرة الأراك من اليمين، وبعد تجاوز آخر نقطة من عدن «رأس عمران» بدأت الطريق الإسفلتية – التي عُبّدت مؤخراً بأوامر من الرئيس علي عبدالله صالح، رئيس الجمهورية، الذي أدرك أهمية تعبيد هذه الطريق مبكراً للأهمية الاستراتيجية – بشريط ساحلي يقدر طوله بـ (١٦٠) كيلو متراً يبدأ من رأس عمران وينتهي بباب المندب في إطار محافظة لحج، بينما الطريق الساحلي يربط عدن «لحج» بمحافظة تعز «المخا» .. وصلت الطريق تعبيداً حتى منطقة ذياب بتعز بتكلفة تقدر بأربعة مليارات ريال .. تتخلل الطريق جسور عدة نتيجة للسيول التي تمخر الأودية باتجاهها إلى البحر.

طريق على البحر

□ عند توديع الجزيرة المتوسطة رأس عمران بدأنا بنقطة مشهور .. باتجاهنا شمالاً تقل الحرارة وتستبدل بهواء طري يخرج من أتون البحر .. رحلة الشغف التي توازي رحلة العشق الأولى بعد أن يدرك المرء معنى الحب .. النظر إلى صفحة الماء قبل الوصول إلى «خيت البقر» ترسم في المخيلة عروسة البحر التي لم ننظرها، لكننا نشكلها بالكيفية التي نريد .. خيت البقر، مكان تكثر فيه الأبقار حتى وقتنا الحالي .. أبقار كثيرة ترعى في ذلك المكان، والتسمية جاءت لذلك، لكن الأخ عمر قال إن الأبقار قلّت عمّا كانت عليه في السابق، لكن ما كان ظاهراً هم البدو الرحل الذين نصبوا خيامهم للعيش.

خور العميرة

□ شجرة الأراك، الطعام الشهي للأبقار والجمال على حد سواء .. خضرة تكتنف البحر، وأمل يغازل القلب، وحب لا ينتهي بمجرد رؤية خور العميرة، هذه القرية التي ذكرها الهمداني في كتابه «صفة جزيرة العرب»، مما يدل على تاريخيتها .. هذه القرية المطلة على ساحل خور العميرة تدخلك قصراً من مساحة التفكير الطويل نتيجة للتاريخ الطويل الذي عانق البحر بالبشر والماء بالرمل .. في هذه القرية يتحدث القدماء بأن الميناء القديم الذي استخدمته الدول القديمة كانت هناك البعثة الألمانية التي زارت المنطقة قبل فترة، قالت إنه توجد آثار قديمة فيها تعود إلى سبعة آلاف سنة قبل الميلاد (حسب تأكيدات الأخ عمر من خور العميرة).

اللسان البحري

□ تنتهي اللسان البحري التي تبدأ من قعوة .. سألت القاضي حنش : هل بإمكان السيارة أن تمر على ذلك اللسان البحري؟ .. رد إيجاباً، وأردف : لكن ذلك سيكون مجازفة، لأن النهاية ستكون السيارة عرضة للرياح القوية من اتجاهي البحر .. اقترح عمر أن يعملوا مصنعاً لتعليب الأسماك في بداية اللسان البحري، كون ذلك سيساعد المحافظة كثيراً، وبالتالي سيستفيد الناس من الثروة السمكية الموجودة هناك.

البحر الأحمر وشجرة الأراك لا يتوقفان عند حدود منطقة يمران عليها .. يقال إن هذه الشجرة تنمو في المناطق الأكثر ملوحة، لكنها عرضة لرعي الجمال والقطع العشوائي لها .. وإذا نظرنا إليها من زاوية اقتصادية فإننا سنجد فيها الكثير من المردود الاقتصادي إذا كان ما سمعته صحيحاً بأن الكثير منه يذهب إلى بعض الدول المجاورة .. وإذا لم يُلتفت لتلك الشجرة من هذا المنظور وتُركت على تلك العشوائية فإن الشريط الساحلي قابل للتصحر، لا سيما وأن الأمطار هناك نادرة والاعتماد يقتصر على الأمطار القليلة جداً وربما لسنوات.

قبل خور العميرة وبعدها مناطق زراعية كثيرة باتجاه يمين الشريط الساحلي .. الزراعة، النخيل، السمسم، وغيرها معتمدة كالبشر على الآبار التي يرجعها مصدر انبعاث الماء منها على الطاقة الشمسية باستخدام ليحان زجاجية موجهة إلى الشمس تنتج عنها طاقة كهربائية تؤدي بدورها إلى ارتفاع الماء إلى الخزانات، وفي كل بئر منها خزان يتناسب مع التعداد السكاني للمنطقة .. في ذلك الشريط توجد بئر قديمة تسمى بئر الصبحية – بوادي الفجرة تحديداً – عمقها (٣٠) متراً، كانت في متناول استخدام أصحاب الوديان .. الآن تعاني من الفراغ.

بحيرة جبل خرز

□ يحيط بالشريط الساحلي – تحديداً بالقرب من قرية خور العميرة – جبل «خرز»، هذا الجبل تحدث الكثير عنه، ولا ندري حقيقة الحديث من عدمها .. البعض يعدها مجرد أساطير .. يُحكى أن الجبل تتوسطه بحيرة قديمة جداً مكتشفة من أيام الغساسنة، فيها أنواع الطيور والأفاعي .. كما يُحكى أنه من الصعب الدخول إليها نتيجة وجود الأفاعي والحيوانات المفترسة، وتظل هذه الحكاوى مجرد أساطير إن لم تكلل بالحقائق، لأن ذلك لو وجد – كما يقال – لصارت المنطقة من أجمل المواقع السياحية على الإطلاق.

تحدث البعض بأنه لا يمكن تصوير الجبل إلاّ إذا كان ذلك جوياً من على طائرة هليكوبتر .. ويتحدث البعض بأن وادي مرخة فيه آثار، لكن الآثار هي الأخرى، سواء أكانت في خور العميرة أو في مرخة – تظل غير ذات جدوى ولا تستند على حقيقة، إلاّ إذا تم التنقيب في خور العميرة بالذات .. تتحدث الكتب التاريخية عن مينائها الطبيعي القديم، الذي لا يحاط بساحل، كما هو حال بقية المناطق الساحلية، حيث العمق البحري من بداية الماء .. وتم الحديث مع مكتب الثقافة مسبقاً في المحافظة .. أكدوا صحة المعلومات عن قدم الميناء والآثار الموجودة فيه، ونرجو أن يتم عمّا قريب التنقيب هناك.

ميناء طبيعي

□ (١٥٠) كيلو متراً قطعتها السيارة في ساعتين من البريقة حتى رأس العارة .. منظر رأس العارة عند وصولنا الساعة الرابعة عصراً كان أكثر جمالاً، رغم بساطة الناس وبساطة مساكنهم .. منازل من الأخشاب المزدوجة .. يعيش فيها بشر لهم طباع موحدة مع كافة المناطق الساحلية .. كنت حينها مبهوراً بكل ذلك، لأنني لأول مرة في حياتي أرى منطقة ساحلية بذلك المنظر بعد الخوخة .. زيارتي للخوخة كانت في سن السادسة عشرة من العمر .. لم أكن أعي حينها معنى البحر، ولم أكن أعي معنى الجمال والسحر الذي يشل التفكير بمجرد المشاهدة لنسيم البحر .. رسمة الطبيعة في غابة الروح، ورسمة الزرقة المعلقة في الهواء .. القاضي حنش أصر على أن أرتاح لدقائق وبعدها أقوم بجولة في القرية .. عشر دقائق قضيتها على نار، خوفاً من انقضاء لحظات الغروب التي يبدو فيها البحر كعروسة تتجهز لليلة دُخلتها .. قمت بجولة تصويرية .. مطاعم من الخشب، وزوارق على الساحل .. ساحل رأس العارة كخور العميرة يتميز بعمق من البداية الأولى للماء، ومن الصعب السباحة فيه، إلاّ إذا كان الغواص ماهراً .. أما المبتدئ أو المتعلم فلا يستطيع الدخول في ذلك العمق .. وربما هذه هي الميزة التي يتمتع بها ذلك الشاطئ.

شاطئ الاصطياد

□ أناس معتمدون على الاصطياد .. (٩٨) نوعاً من الأسماك في رأس العارة، يمول محافظات عدة بالأسماك، ويذهب إلى السعودية – أيضاً – سألت محمد – عشرين عاماً – عن العيش في متاهة الزرقة المائية، قال : نحن مرتاحون هنا، خاصة بعد أن تعبّدت الطريق .. قاطعه زميله : خمس ساعات لم تكن كافية للوصول إلى عدن، لكن بعد الإسفلت – كما رأيت – ساعة ونصف إذا كانت السيارة مسرعة.

رأس العارة لم تقتصر على أبنائها في الاصطياد .. صيادون كثيرون يُقدّرون بـ (٦٠٠) صياد من الخوخة يصطادون في رأس العارة .. لم تكن مسألة الاصطياد عشوائية هناك، بل شُكّلت جمعية صيادي رأس العارة التعاونية السمكية الإنتاجية.

الجمعية السمكية

□ يتحدث عن نشاط هذه الجمعية الشيخ محمد سالم، الأمين العام للجمعية : إنه تم تأسيس الجمعية في مايو ١٩٧٣م .. تقع الجمعية في الجهة القريبة من البحر العربي وخليج عدن، ولها حدود جغرافية ابتداءً من خور العميرة شرقاً والسقيا غرب محافظة لحج .. تضم الجمعية حوالي (١٥٠٠) صياد، منهم (٥٠٠) صياد مساهمون في عضوية الجمعية، وحوالي (١٨٠) قارب صيد تقليدي، إلى جانب الصيادين الوافدين من المحافظات الشمالية، والشرقية بحدود (٦٠٠) صياد و(١٢٠) قارب صيد تقليدي، وتقوم الجمعية بمزاولة نشاطها من خلال المزاد العلني للأسماك المختلفة وتصديرها محلياً وخارجياً، منها : (الحبار، اللخم، الهامور، اليافي بأنواعه، الديرك، السخلة، الأسماك الصخرية).

ويضيف : إن الجمعية تفتقر إلى البنية التحتية مثل وجود مجمع سمكي يتمثل في بناء مجمدة ومخازن حفظ الأسماك وساحة لتحضيرها وسيارات نقل .. كما تقوم الجمعية بخدمات اجتماعية للمنطقة والصيادين مثل الكهرباء والماء مجاناً .. أضف إلى ذلك الإسهام في الجانب التربوي والصحي ومساعدة الصيادين، كالعلاج وتقديم القروض للصيادين مثل ترميم القوارب وشراء المحروقات وقطع الغيار للمحروقات البحرية ومعدات الاصطياد.

ويقول : إنه عند زيارة معالي وزير الثروة السمكية للاطلاع على أوضاع الصيادين في الجمعية واستماعه إلى همومهم، وعد بإنشاء مجمع سمكي متكامل في منطقة رأس العارة، والزيادة في القوارب للجمعية، وإنشاء كاسر الأمواج بالمنطقة .. وتم منذ عام ٢٠٠٣م تسليم (١٥) قارب صيد تقليدي مع محرقاتها لصيادي الجمعية بقرض مدعوم بـ (٥٠٪)، بالإضافة إلى تحديث المنشأة السمكية للجمعية، والمتمثل في مصنع ثلج (١٠) أطنان مجروش، ومولد كهربائي (فولتو) بقرض (٣٦,٥٠٠,٠٠٠) ريال ممول من صندوق التشجيع السمكي الزراعي.

منطقة سمكية درجة أولى .. الزائر للحج لا يعرف أنه ساحل، لكن المكوث فيها يجعلك أكثر إيماناً بأهمية هذه المحافظة البكر التي لم تستغل بعد .. والمحافظة، التي جمعت بين الزراعة والاصطياد، قادرة – إذا ما استغلت بشكل صحيح – على أن تكون محافظة تصنيعية .. فقط مزيد من الاهتمام يجعلها في مصاف المحافظات الغنية.

أشياء أخرى

□ يواجه الأهالي في رأس العارة شبح المرض، الملاريا، الالتهاب الرئوي، السل .. وعند الزيارة إلى المستشفى الريفي هناك، والذي افتتح قبل عام، يتأكد للزائر مدى المعاناة المرضية التي تتمنطق من ذلك الساحل المغمور بشمس الغروب .. نائب مدير المستشفى قال : إن المستشفى به (٢٠) سريراً، مضيفاً : إن مرض السل هو العقبة الرئيسية، لأنه لا يوجد قسم خاص في المستشفى لمكافحة السل .. الأهالي قالوا إن هذه الأمراض الثلاثة يتسع لها المستشفى، وهذا خطأ من وجهة نظري .. المعاناة الأخرى هي الماء .. توجد بئر واحدة قديمة، لكن ماءها إذا تم حفظه في الخزانات سرعان ما تتوالد فيه الديدان، وهذا شبح آخر يشكل لهم عقبة رئيسية.

بقي أن نقول : إن مزيداً من الاهتمام بهذه المنطقة من قبل السلطة المحلية سيجعلها منطقة سياحية على المدى القريب، لا سيما وأن دخلها ليس هيناً، ولكنه يحتاج إلى حسن تصرف .. وفي لقاء سابق قال أمين عام المجلس المحلي : إن الاستعدادات جارية لإقامة منشآت سياحية في المنطقة.

ونتمنى أن يكون ذلك صحيحاً، وليس مجرد كلام اعتادت عليه الجهات المسؤولة.

قبل العودة

□ في الساعة السابعة مساءً أصر القاضي حنش على أكلة سمكية على الشاطئ .. كثير من النسوة كن يفترشن الشاطئ بحثاً عن أسماك من الصيادين .. نسوة جئن من قرى متناثرة، وهذا دأبهم في البحث عن العيش في شواطئ عدن خاليات الوفاض، لأن البحر في ذلك اليوم لم يدر خيراً، ربما أنه علم بقدومي إلى هناك .. وأنا شخصياً النحس يطاردني حتى البحر .. قررت العودة حينها حتى لا ينحس المكان .. وبعد تناول أكلة شهية طرية من البحر إلى المعدة مباشرة، تحركت بنا السيارة باتجاه لحج، لكنني تركت ذاكرة مشبعة بحياة جديدة يعيشها الصيادون على طريقتهم التقليدية .. لا يخلو جمالها من سحر، ولا رمالها من ذهب، ولا ماؤها من ثروة .. هذه المنطقة تبعد عن باب المندب (٥٠) كيلو متراً فقط .. كنت أتمنى مواصلة الرحلة إلى باب المندب، لكن الوقت والسيارة ليسا ملكي، والحال – أيضاً – خارج نطاق التغطية.